مقـــدمة

سعيـًا وراء السعـادة

مع فـجـر القـرن الحادى والعشـرين، تبوأت الولايات المتـحدة مكانة فى الشئون العـالميـة لا يوجـد لهـا نظيـر فى التـاريخ. ويتـعين بالفـعل على المرء أن ينظر إلى ذروة الإمبراطورية الرومانية، منذ نحو ألفى سنة مضت، للعثور على وضع يمكن مقارنته رغم بعده.

فتحت روما العالم بقوة السلاح. ونهضت قوتها على أكتاف آلتها العسكرية، التى جسدتها الجحافل. ومنذ ذلك الحين مارست كل قوة عظمى هيمنة سياسية على شعوب غريبة عنها لتلبية مصالحها الذاتية. ومنذ قرن مضى، غطت الإمبراطورية البريطانية نحو ربع مساحة المعمورة فى الكرة الأرضية، بينما كان ثلث سكان العالم رعايا الملك إدوارد السابع، لكن تحدثت أقلية صغيرة من هذه الشعوب باللغة الإنجليزية أو اعتبرت نفسها بريطانية.

إلا أن الولايات المتحدة كانت دومًا فى أغلب الأحوال دولة إمبريالية غير مبالية. وفى القرن العشرين كانت القوة الكبرى الوحيدة التى لم تضف إلى أراضيها مساحات أخرى تبسط سيادتها عليها نتيجة للحرب، بالرغم من أنها الوحيدة أيضًا التى خرجت أكثر قوة من ذى قبل من أى الصراعات الثلاث بين القوى الكبرى خلال هذا القرن. واليوم تمتلك الولايات المتحدة ٦ ٪ فقط من إجمالى مساحة الأرض فى العالم و٦ ٪ أيضًا من إجمالى سكانه ـ وينظر كلهم فعليّا لأنفسهم على أنهم أمريكيون ويتحدثون

obeikan.com

الإنجليزية. ومع هذا فإن نفوذها فى العالم أكبر بكثير جدّا من نفوذ بريطانيا فى أوج قوتها النسبية فى منتصف القرن التاسع عشر.

ويرجع السبب فى هذا إلى الاقتصاد الأمريكى. ففى الوقت الذى امتلكت فيه الولايات المتحدة ٦٪ فقط من الأرض والسكان، فإنها تنتج نسبة تقترب من ٣٠٪ من إجمالى الناتج العالمى، أى أكثر بثلاثة أمثال من إنتاج أى بلد آخر. فى أى مجال من مجالات النشاط الاقتصادى، من التعدين إلى الاتصالات السلكية واللاسلكية، وبأى مقياس تقريبًا من الإنتاج الزراعى لكل فرد، إلى عدد الكتب الذى يصدر سنويّا إلى عدد جوائز نوبل (أكثر من ٤٢٪ من هذه الجوائز)، الولايات المتحدة تقود العالم.

ولايعد اقتصادها الأضخم فحسب، إنما الأكثر دينامية وابتكارًا أيضًا. وقد نبع فعليّا كل تطور رئيسى فى مجال التكنولوچيا فى القرن العشرين ـ الذى يفوق القرون الأخرى أهمية فى تاريخ التكنولوچيا بمراحل ـ فى الولايات المتحدة أو جرى تصنيعه بشكل أساسى وتحويله إلى منتجات هنا. وبالتالى، فإن ثقافتها من البنطلونات الجينز إلى أفلام هوليوود إلى مشروب كوكا كولا إلى موسيقى روك آند رول إلى سيارات عائلية ذات استخدام رياضى SUVs إلى غرف «الدردشة» على الكمبيوتر، تتخلل بقية الكوكب. ومع انتشار التكنولوچيات الجديدة حول العالم، فإنها جلبت معها الأساليب الأمريكية والمنظور الأمريكى.

وأصبحت الإنجليزية بشكل متزايد اللغة الموحدة للعالم، مثلما كانت اللاتينية كذلك فى أوروبا على مدى قرون. ويشكل الطلاب الذين يدرسون اللغة الإنجليزية نسبة ٦٠٪ من الذين يدرسون لغات أجنبية اليوم على مستوى العالم، والتى أضحت بصورة متزايدة مادة يتطلب وجودها فى النظام المدرسى فى كل مكان. ويعود السبب فى هذا جزئيّا إلى فضل الإمبراطورية البريطانية فى أن الكثير من البلدان تستخدم الإنجليزية كلغة أولى أو ثانية، لكن بالقدر نفسه لأن الولايات المتحدة تهيمن على العالم فى الاتصالات والتسلية. وتعد شبكة الإنترنت، وهى أكثر وسائل الاتصال قوة جرى ابتكارها على الإطلاق، اختراعًا أمريكيّا، والإنجليزية هى لغة نسبة ما يزيد على ٨٠٪ من مواقع الإنترنت البالغ عددها أربعة مليارات موقع قائم اليوم.

ولا تكمن القوة الفائقة للولايات المتحدة فى جيشها إذن ـ على قوة هذه الجيش ، لتكن على يقين من هذا ـ إنما فى ثروتها ، والتوزيع الواسع للثروة بين سكانها ، ومقدرتها على خلق مزيد من الثروة ، وخيالها الذى يبدو أنه لا آخر له فى ابتكار طرق جديدة لاستخدام هذه الثروة على نحو منتج .

إذا تأمرك العالم على نحو سريع مثلما صار رومانيا ذات مرة ، فإن السبب لا يعود إلى أسلحتنا ، إنما إلى حقيقة أن الآخرين يريدون ما نملك ومستعدون ، بل متلهفون إلى تبنى أساليبنا لكى يمتلكوا مانمتلك أيضًا . إن الانتشار الذى لا يهدأ للديموقراطية والرأسمالية فى العقود الأخيرة الذى تم إلى حد كبير فى ضوء النموذج الأمريكى ، لهو فتح سلمى وإلى حد كبير مرحب به ـ على الأقل من جانب الناس ، إن لم يكن عادة من جانب النخب التى رأت أن قوتها الذاتية تنساب من بين يديها . إنه فتح أكثر دهاء ، أكثر إيجابية وأكثر تغلغلا ، وفى أغلب الاحتمالات أكثر ديمومة من أى شىء عرف من قبل .

وبالتالى ، فإن أمريكا إمبراطورية ثروة ، إمبراطورية نجاح اقتصادى وأفكار وممارسات رعت هذا النجاح . ويرى الاقتصاد الأمريكى عادة عند استرجاعه ، مثل الكثير من أنواع النجاح ، كشىء حتمى ، بل مقدر سلفًا . وعلى أية حال ، توجد بالبلد دائمًا أراض شاسعة متنوعة وخصبة وموارد طبيعية وفيرة وعدد ضخم من السكان المتعلمين تعليمًا جيدًا . لكن الأرجنتين لديها كل هذه الأصول أيضًا ، ولم تحارب حربًا طويلة الأمد منذ عام ١٨٧٠م ، ومع هذا ، فهى تكافح من أجل أن تحافظ على مكانتها كدولة متقدمة . يقل إجمالى الناتج المحلى الخاص بها عن ثلث ما تنتجه الولايات المتحدة لكل فرد .

ويعود السبب فى الكثير من هذا الأمر بسبب الاختلاف القائم على السياسة ؛ لأن الأرجنتين ورثت من إسپانيا النظام الإمبراطورى فى التحكم من أعلى وهو ما دمر الثروة فى الكثير جدّا من الحالات ، أو فى الأغلب مَنَع ، بدلا من أن رَعَى تكوينها ، لكن السياسة الأمريكية تمتعت بحظ عظيم هائل فى أن تتأسس على التقاليد الإنجليزية وبخاصة فكرة أن القانون وليس الدولة هو الذى يعلو على كل شىء . ولعب المفهوم الإنجليزى المتفرد فى مسألة الحرية ـ فكرة أن الأفراد لديهم حقوق متضمنة ، من بينها حقوق التملك ، التى لا يمكن إلغاؤها بشكل تعسفى ـ دورًا حاسمًا أيضًا .

كانت إنجلترا هذه قادرة على أن تطور تلك المفاهيم، وتضمنها فى السياسة، وتنقلها إلى أبنائها إلى حد كبير نتيجة إلى وجود أكثر الحقائق الجغرافية أهمية فى تبعاتها فى أوروبا، وربما فى العالم: ثلاثة وعشرون ميلاً من المياه الغادرة تفصل بين جزيرة بريطانيا العظمى عن البر الرئيسى لأوروبا. ويعد القنال الإنجليزى ضيقًا بما يكفى لجعل إنجلترا فى اتصال لصيق ومستمر مع البر الرئيسى، ومع هذا عريضًا بما يكفى لجعل غزو إنجلترا أمرًا غير مأمون العواقب. لقد نجح مرة واحدة فقط خلال الألف عام الأخيرة.

وفى ظل انعدام الحاجة للاحتفاظ بجيش ضخم ومكلف، كانت إنجلترا دولة منخفضة الضرائب طوال جزء كبير من تاريخها، واستطاعت توظيف مواردها الاقتصادية فى خدمة تطوير المزيد من الموارد. وعلاوة على هذا، تحملت إنجلترا رفاهية وجود حكومة غير مركزية؛ وتركت إدارة الشئون المحلية فى أيدى أناس محليين مع تدخل قليل من جانب الملك. وتتمتع إنجلترا بأكثر البنى الاجتماعية سيولة وانسيابية فى التغير مقارنة بأى دولة كبرى فى أوروبا. وفى الوقت الذى توجد فيه أرستقراطية ـ وهى بالفعل طبقة أسطورية فى ثروتها ونفوذها ـ فإنه ليس لدى بريطانيا طبقة من النبلاء منغلقة على ذاتها. وتعد حالات زواج التحالفات بين الأسر البورجوازية وعائلات ذوى الأملاك الزراعية أكثر شيوعًا دومًا فى بريطانيا عنها فى القارة، وبالتالى فإن الموهبة يمكن أن ترتقى السلم إلى أعلى. وقد استهدف وصف ناپليون لبريطانيا بأنها أمة من تجار الحوانيت إلحاق الإهانة. لكنها اعتبرت مجاملة.

اعتاد الإنجليز هذه الحالة، واتسموا بالعداء العميق لأى محاولات لتغييرها. وجلب الإنجليز الذين استوطنوا أمريكا فى القرن السابع عشر هذه الأفكار معهم، وطبقوها على الوضع الجديد الذى وجدوا أنفسهم فيه.

وعلى مستوى الجغرافيا السياسية، تشابه هذا الوضع مع وضع إنجلترا، ولكن على نطاق أعظم. وحتى النصف الثانى من القرن العشرين، كانت أمريكا الشمالية حصينة إلى حد كبير ضد أى اعتداء أجنبى، ويد الحكومة (بالتالى جامع الضرائب) بسطت فى خفة شديدة بالفعل فى أغلب الأوقات. ومثلما أتاح الموقع الممتاز لبريطانيا العظمى على الخريطة أن تهيمن على طرق التجارة لأوروبا الشمالية مع بدء هيمنة هذه المنطقة

على الشئون الأوروبية والعالمية، فإن الموقع الممتاز للولايات المتحدة أتاح لها أن تستفيد من ظهور اقتصاد عولمى كامل. وتعد الولايات المتحدة هى القوة العظمى الوحيدة التى تطل على كلٍّ من المحيطين الأطلنطى والهادى، والوحيدة التى تمتد أراضيها القومية عبر مناطق مناخية قطبية ومعتدلة ومدارية. إنها فعليّا وفى وقت واحد جزيرة، مع كل الأمان العسكرى الذى تتيحه الجزيرة وقارة بكافة ما تتمتع به قارة من موارد.

وعلاوة على ذلك، أغلب من جاءوا إلى الولايات المتحدة الآن ـ الذين ليسوا بأى حال من الأحوال من الإنجليز بالطبع ـ جاءوا إلى هنا بالتحديد ليتمكنوا من إدارة شئونهم كيفما شاءوا، لكلٍّ من عبادة ربهم وتحسين وضعهم الاقتصادى كأرض الفرص. إنه ربما ليس مصادفة أن تكون الولايات المتحدة أكثر أمة متدينة على وجه الأرض، وفى الوقت نفسه أكثر أمة علمانية، والأكثر ورعًا والأكثر تجارية.

وكما لا يوجد مجال للشك فى أن الولايات المتحدة اشتهرت بمبدأ انهض واذهب، يرجع هذا إلى أن الأمريكيين ينحدرون من سلالة الذين نهضوا وجاءوا. أولئك الذين اختاروا أن يهجروا كل ما عرفوا على الإطلاق، وجاءوا إلى أرض غريبة ونائية سعيًا وراء أفكارهم عن السعادة. هنا، وجدت الغالبية العظمى ظروفًا سمحت لهم بأن يفعلوا هذا مع أقل قدر من التدخل مقارنة بأى مكان آخر، وبالتالى منحتهم فرصة أفضل للعثور عليها. وحتى أولئك الذين جاءوا كأسرى، بدلاً من أن يأتوا بإرادتهم الحرة، نجا كل واحد منهم بشكل ما من عذابات شديدة يتجاوز مخيلة أبناء العصور الحديثة ونقلوا هذه القوة إلى ذرياتهم. ولأن الاقتصاد القومى ليس إلا الإنجازات الاقتصادية الجماعية لجموع المواطنين، فإن الاقتصاد الأمريكى أصبح، على مدى أربعة قرون من نشوئه، واحدًا من أعاجيب العالم الحديث، فهو بالفعل المنشئ الأول لهذا العالم الحديث.

هذا لا يعنى القول بأن تاريخ الاقتصاد الأمريكى لم يكن انتصاراً تلو انتصار. على هذا النحو، كان هذا الكتاب سيصير مملاً جدّا. عند نقاط عديدة فى تاريخ الولايات المتحدة، كان الاقتصاد فى مشكلات عميقة، وهذه المشكلات كان يمكن بسهولة أن تخرج عن نطاق السيطرة إذا كانت القيادة السياسية قد أخفقت مثلما خذلت قيادة الأرجنتين هذا البلد كثيراً جدّا.

بعد الثورة، شهد الاقتصاد الأمريكى حالة ركود عميق، واستبعدت منتجات البلد إلى حد كبير من الإمبراطورية البريطانية، حيث كانت تقع غالبية الأسواق التقليدية. وأضحت عملتها، إلى الحد الذى جعل لها عملة، أضحت بلا قيمة ؛ وديون حكومتها لم تسدد وغير قابلة للسداد. وفى عام ١٩٣٢م، تغلغلت كارثة الكساد العظيم فى كل المناحى إلى الدرجة التى جعلت ليس مستقبل الاقتصاد فحسب إنما مستقبل الجمهورية ذاتها محل شك بالنسبة للكثيرين.

فى كلتا الحالتين، تمكنت البلد من اجتياز العاصفة والخروج أقوى من ذى قبل بفضل القيادة غير العادية، فى الحالة الأولى چورچ واشنطن وألكسندر هاميلتون، وفى اللاحقة فرانكلين د. روزڤلت. لكن ساسة البلد ارتكبوا أيضًا أخطاء جسيمة، من بينها ما أدى إلى حدوث الكساد العظيم ذاته. وكان تدمير البنك الثانى للولايات المتحدة على يد أندرو جاكسون أن ظلت البلد بلا بنك مركزى لما يقرب من ثمانين عامًا. ونتيجة لذلك، كانت حالات الذعر المالى المتكررة خلال القرن التاسع عشر وفى مطلع القرن العشرين أسوأ بكثير، وحالات الكساد التى أعقبتها أعمق كثيرًا مما لو كان الوضع خلاف ذلك.

مثل غالبية قصص الإمبراطوريات، فإن قصة إمبراطورية الثروة هى قصة ملحمية، مليئة بالانتصارات والكوارث، والجسارة والهيبة، والأفكار الجدية والأحقاد القديمة، ورجال عظام وحمقى حماقة مطبقة. لكن فى الأعم الأغلب، هى ملحمة حركها ملايين لا تحصى من بشر يسعون وراء مصلحتهم الذاتية ضمن حكم القانون، الذى هو جوهر الحرية. ومثلما هو الحال بالنسبة لكل الملاحم، توجد فى القلب منها نافذة نطل منها على ما يجعلنا بشرًا؛ لأننى لا يمكن أن أفكر فى تفنيد كاسح لتصور ويليام ووردسورث أنه «فى النيل والإنفاق نبدد قوانا» أكثر من قصة الاقتصاد الأمريكى.